

تحرير القول في بيان حقيقة مشابهة اللهجة القبائلية للغة القرآن الكريم

أ. أوسالم محمد نذير

كلية العلوم لإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران - الجزائر

الملخص: نريد إبراز حقيقة المشابهة بين اللهجات القبائلية وبين لغة القرآن، وكذلك من خلال المباحث التالية: (المعرب من البربرية في القرآن - توافق الأمازيغية مع العربية في كثير من الألفاظ لفظا ومعنى، ومن خلال أثر لغة القرآن في القبائلية، وأثر الفقه الإسلامي فيها).

الكلمات المفتاحية: اللهجة، الأمازيغية، العربية، القرآن الكريم، الفقه.

1. مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الذي علم الانسان ما لم يعلم، خلق فيه حسّ التفد والتطر، ليقبل أشياء ويردّ أخرى، ثم الصلاة والسلام على النبي الكريم الذي أنزل عليه القرآن بلسان عربي مبين، لسان كتب الله له الخلود، وجعل له في قلوب المسلمين من غير العرب تعظيمه، وليس أبين على ذلكم التعظيم، ولا أجلى له كاستلهمهم من أساليبه وألفاظه، وأخذهم منه ما يؤيدون به لغتهم التي يتخاطبون بها، وهذا كان ديدن الأمازيغ الذين باشر شغاف قلوبهم الإسلام، منذ أن وطئت سنا بك خيل الفاتحين أرض هذه الديار المغربية؛ وبعد : فإن التراث الجزائري غني بتنوعه، وتعدد مشاريعه، قد جادت به أزمان متواترة، وحضارات متعاقبة، وشعوب جاورت أهل هذه البلاد الأصليين من

الأمازيغ، فإذا بالأفكار، والرؤى، والأعراف، والعادات، والألسنة تتلاقح، ويتأثر الناس بعضهم ببعض؛ وهذا مصداقاً لمقولة علماء علم الاجتماع المشهورة: "الإنسان مدني بطبعه".

ولعلّ أعظم أثر عرفه أهل هذه البلاد، ما أعقب مجيء الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية في الشمال الإفريقي، الذي ما زادت الأيام إلّا رسوخاً وثباتاً، على الرغم من محاولة الاستعمار الفرنسيّ - طيلة بقائه - محوّه وتدسيته .

فالإسلام دخل إلى هذه البقعة الطّيبة من الشمال الإفريقي، وقد رضيه أهله من الأمازيغ ديناً لهم، أشرته قلوبهم، ووعته عقولهم، ولانت بلغة القرآن ألسنتهم، والكلّ يعلم أنّ اللّغات إذا تجاوزت تأثّر بعضها ببعض، كشأن اللّهجات العامية في الجزائر التي أخذت من الأمازيغية ألفاظها، وأساليبها، وتراكيبها، ونغماتها الصوتية، ومخارج حروفها، فكأنّما هي اللّغة الأمازيغية بكلام عربيّ .

أمّا اللّسان الأمازيغي فهو مزيج من الألفاظ الأمازيغية الأصيلة، مع كثير من الألفاظ العربية الفصحى، وبالأحرى القرآنية الصّميّة التي وجد فيها الأمازيغ ضالّتهم في التعبير عمّا ينشدونه من المعاني، وصارت تلك الألفاظ منها وإليها، مؤمّزة لا عوج فيها .

فإذا مارجعنا إلى اللهجة القبائلية (تقبيليث) ⁽¹⁾ نجد أهلها يتداولون فيها الكثير من الألفاظ القرآنية، والمصطلحات الفقهيّة، بله العربية، فما لا نجد له مثيلاً في سائر ضواحي البلاد، ممّا يُنمُّ عن وعي بالفقه ومصطلحاته عند عامّة النّاس في بلاد القبائل، كما يدلّ الدّلالة الواضحة عن تأثّرهم العميق بالقرآن الكريم، وما ذاك إلّا لعمق إسلامهم، وربّما يرجع هذا إلى كثرة زوايا العلم المنتشرة في ربوع تلك البلاد.

الأمازيغ - كما هو معلوم - لهم شخصيتهم الخاصّة التي يعتدّون بها اعتداداً بالغاً، لا يتنازلون عنها أبداً - مهما ادهمت الخطوب -، ولكنّهم حينما يأنسون إلى ما يجدونه عند غيرهم، لا يستنكفون عن الاستفادة منهم، وذلكم هو شأن العقلاء الذين يربون إلى المزيد النّافع أينما وُجد، والإسلام كان المعين الذي لا ينضب لأبناء مازيغ، يكرعون منه على الدّوام دون انقطاع، وهم يدركون بصدق

أن حاجتهم إليه ماسة لا يصدّهم عن ذلك صادّ؛ وهم بذلك تعلّموا اللّغة العربيّة، ودرسوا القرآن وحفظوه ، وحرصوا على تعاليم الإسلام، وقد انصهروا في روحانيته السّامية ، الّتي شدّت قلوبهم إلى هذا الدّين شدّاً وثيقاً، وذلك ما تدعو إليه طبيعتهم - وإن بدت في ظاهرها قاسية - إلّا أن بواطنهم تحمل سيولا من العواطف الرّقيقة النّقية، والأحاسيس الجياشة التّبيلة، وذلك ما يشهد به كلّ من عاشرهم، وسير أغوارهم .

ومثل تلك الخصائص والخصال هي التي تدفعهم إلى قبول كل ما يأتي به القرآن من لفظ رائق، ومعنى فائق، وهدي سامق، وعندها يقتبسون منه اللفظ الفصيح ليجمّل به كلامهم ، ويلتزمون أحكامه لأنّهم أدركوا معناه وفحواه، وذلك ما يصدّقه واقع النّاس في بلاد القبائل - قبل أن تصيبها لوثات هذا العصر - حينما نكتشف أنّ الحياة الاجتماعية لديهم - بما فيها من عادات، وأعراف، وسلوكات، ومخاطبات - قد تأثّرت بما جاء به الدّين الحنيف، ممثّلا في أحكام القرآن والسّنة، وأقوال السّادة الفقهاء .

ولا عجب في هذا، فإنّ بلاد الرّواوة عرفت من الرّوايا، والخواضر العلمية أكثر ممّا عرف غيرها ، وبجاية كانت من أبرز الخواضر العلمية في بلادنا لعدة قرون، وقد عرفت من العلماء والصلحاء، ما أعقب من المآثر العلمية، والمعارف الصّوفية ما لا ينكره أحد ، وبجاية كانت قبلة العلماء من شتّى بقاع الأرض، ويكفيها أن كانت موئلا لأمثال أبي بكر بن العربي ، وعبد الرحمن بن خلدون، وأبي مدين الغوث، ومن لا يحصي عددهم إلا الله .

وحينما نطالع [عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية] لأبي العباس الغبريني (... - 714 هـ-)، وكذا [الرّحلة الورثيانية: نزهة الأنظار في فضل التّاريخ والأخبار] للحسين بن محمد الورثاني (1125 - 1194 هـ-)، أقول عند مطالعة هذين الكتابين وغيرهما، سندرك أن هذه القطعة الطّيبة من بلاد الجزائر وما جاورها، عرفت من الآثار العلمية والروحية ما يُنبئنا عن عمق الدّين والتّدين في قلوب أصحابها، وعن حبّ العرب والعربيّة، وإن أفلت أنوارها في بعض الأحيان فإنّ أفولها لا يطول، إذ قلوب النّاس فيها سهلة الانقياد، إذا ما

وجَدت الأيدي الحانية، والسلوك الجميل فيمن يدعوها إلى الخير ويقودها به، ويحمل تلك المعارف الدينيّة واللّغوية برفق ولين، كما أوائل هذه الأُمَّة من الفقهاء، والقراء، الَّذِينَ رابطوا لتعليم النَّاس كتاب الله، وسنّة نبيّهم، والفقه والعربيّة، وإنّ تلك البلاد لتفخر أن أنجب ابن معطي الزّواوي الذي كان له شرف السبق في نظم أوّل ألفية في التّحو.

أتكلّم عن منطقة يربطني بها صلة الدّم والقراة، وأنا وإن لم أولد بأرضها، ولم أنشأ بين جنباها، ولم أركض في صباي على صخور جبالها، ولم أله مع الأطفال بترها، ولم أرتو بماء عيونها الثّرة، ولم أنتش بهوائها التّاعم، إلّا أن صلتي بها لم تنقطع وإن بعدت الشّقة، ومعرفتي بها وإن لم تكن شاملة، إلّا أنّي أعرف عنها الكثير ممّا سمعت أو قرأت.

ولعلّ أهمّ ما في ذلك كلّ معرفتي بلهجة أهلها وهي القبائلية - وقد أخذتها عن أهلي منذ نعومة أظافري - كما حباني الله بمعرفة اللّغة العربيّة، ولغة القرآن ومصطلحات الفقهاء - بحكم التّخصص في العلوم الشرعيّة - وذلك ما أعاني على فتح الرّتاج لألج من خلاله إلى موضوع شائك في بابه، خطير في مضماره، والعون فيه من الله وحده، والشّفيق الوحيد فيه أنّ الحديث سيكون عن اجتهاد مرهون بصدق صاحبه، والتّزامه بالموضوعيّة، وأنّ يعتقد أنّ كلامه فيه نسبي، منه ما يؤخذ، ومنه ما يردّ؛ وفي حريّة الرأي مندوحة.

2. أولاً: المعرّب من البربرية في القرآن:

يُعَدّ الإمام السيوطي من بين العلماء الذين أفردوا مؤلّفاً لمسألة المعرّب في القرآن، جاء في مقدمته ذكر اختلاف العلماء في هذه القضية، منهم من أنكر وجود المعرّب في القرآن كالشافعي، وابن جرير، أبي عبيدة، والقاضي أبي بكر، وابن فارس، واستدلوا على ذلك بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف/ 2]، وأشدهم في ذلك الإمام الشافعي. وأمّا الفريق الثاني فلم يجمع من وجود ألفاظ أعجمية في القرآن، وصارت بحكم الاستعمال عربيّة، وهو ما ذهب إليه ابن عطية الأندلسي في قول له في تفسيره، أثبتته السيوطي في مذهب؛

ومع تصرفه في لفظه : "بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم ، فعَلَّقت من لغاتهم ألفاظا غيرت بعضها بالنقص من حروفها، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الفصح ، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ."⁽²⁾

ويخلص الإمام السيوطي إلى أن القرآن فيه المعرّب ، مستدلا ببعض الأقوال والآثار، منها ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه - بعد ذكر السند - عن أبي ميسرة قال : نزل القرآن بكل لسان ؛ وعن الضحاك أيضا قال : نزل القرآن بكل لسان . ثم يأتي بدليل من القرآن يسند به رأيه ، يضيفه إلى سائر الأدلة ، فقال : قلت ، وأيضا فالنبي - صلى الله عليه وسلم - مرسل إلى كل أمة ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم/4] ، فلا بد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم، وإن كان أصله بلغة قومه هو .⁽³⁾

ومّا جاء في كتاب المذهب أن القرآن حوى على ألفاظ بربرية غرّبت ، وعددها - فيما تفرق في كتابه - بلغ سبعة ألفاظ وهي :

الأبّ : الحشيش بلغة المغرب .

إناه : أي نُضججه بلسان أهل المغرب .

حَمِيمٍ آنٍ: هو الذي انتهى حرّه بلغة البربر .

من عين آنية : أي حارة بلغة البربر .

قنطار : ألف أوقية من ذهب أو فضة بلغة البربر .

المهل : عَكَرٌ⁽⁴⁾ الزيت بلسان أهل البربر .

يُصهر : ينضج بلسان أهل المغرب .⁽⁵⁾

قد تكون تلك الألفاظ ، جميعها أو بعضها أو أكثر منها مّا هو من البربرية معربا في القرآن ، ولا يوجد مانع عقلي ولا شرعي من ذلك ، وشعوب الأرض قد ثبت احتكاك بعضها ببعض منذ آلاف السنين، وإمكان التأثير والتأثر وارد.

3. توافق الأمازيغية مع العربية في كثير من الألفاظ :

لا أريد أن أدخل في دوامة الاختلاف الذي دار بين كثير من الباحثين ،الذين تناولوا هذه المسألة بكثير من الحيد عن الصواب والموضوعية العلمية ،إذ المسألة في كثير من جوانبها لا تعدو أن تكون اجتهادات ،يعتريها كثير من الاحتمالات التي لا تؤدي بالباحث إلى اليقين ، ولذا تطرح هذه المسألة على بساط البحث ،ويبدلي فيها كل طرف برأيه .

والسبب الأساس في هذه المعضلة قلة الكتابات أو عدم اكتشافها ، وعلماء الآثار لا يزالون يبحثون عن حفريا الأزمنة الغابرة ،لعلها تكشف لهم من الأسرار ما يفيض بعض النزاعات ،ويفك عقد الاحتمالات التي يتخبطون فيها .

لا يمكن لأي باحث لغوي أن ينفي التقارب بين البربرية والعربية ، وهما هو الدكتور يوسي آرو – أستاذ اللغات والآداب الشرقية في جامعة هلسنكي بفنلندا – وهو يعزو هذا التقارب إلى أقرب العصور يقول : "أما بالنسبة عن قرابة اللغات العربية واللغة البربرية ،فعلينا أن ننبه إلى حقيقة مبدئية أخرى وهي أننا نلاحظ أن ثمة تشابها قريبا جدا بين اللغة البربرية واللهجات العربية في بلاد إفريقيا الشمالية خاصة في مجموع المفردات اللغوية، ولكن هذا التشابه قريب العهد ومردّه للاتصالات القريبة بين العرب البربر منذ الفتوحات الإسلامية، فلقد استعار البربر كمية ضخمة من المفردات العربية ، كما وأن العربية بدورها قد استعارت عدة مفردات بربرية، ونعرف مثلا أن الأرقام في الكثير من اللهجات البربرية إنما هي أرقام عربية ،ولكن كل هذا يشكل ظاهرة حديثة أو قرية العهد ولا أهمية لها بالنسبة للعصور القديمة." (6)

وعندما أتحدث عن مسألة التوافق بين الأمازيغية والعربية لا بد أن استحضر اسما لامعا في عالم الفكر والابتكار ، وإن كان – للأسف الشديد – اسما باهتا عند كثير من الناس عندنا، وأقصد به يهوذا بن قريش التاهري الذي تعرفت عليه وعلى كتابه الذي يقارن فيه بين العربية والبربرية، والعبرية في مقال كتبه الوزير السابق السيد أحمد الطالب الإبراهيمي – منذ خمس وعشرين سنة – في مجلة الأصالة التي لم

أعثر عليها، ومن حسن الحظ أن غيره قد كتب عن هذا النابغة وكتابه، وفيه يقول السيد أحمد توفيق المدني رحمه الله: "لقد بلغ التسامح الديني في دولة بني رستم مبلغا سمح لليهود بمزاولة العلم كالمسلمين والتبحر فيه، حتى نبغ من بينهم يهوذا بن قريش الذي ترك كتابا عجيبا لا يزال إلى اليوم موجودا بمكتبة أكسفورد، وقد نظر في كتابه هذا بين العربية والعبرية والبربرية، وأثبت أن أصلها واحد، وكان يتقن تلك اللغات الثلاث علاوة على الفارسية، فكان هذا اليهودي التيهري أول واضع لعلم النحو التطبيقي"⁽⁷⁾.

وقال عنه شيخنا العلامة عبد الرحمن الجليلي - أمد الله في عمره - وهو يتحدث عن أعلام الفكر الذين نبغوا على عهد الرستميين، فقال: "ويكفي في الاستدلال على النبوغ يهوذا بن قريش التاهري في القرن الرابع الهجري، فإنه كان متضلعا في كل اللغات العربية والعبرانية والآرامية والفارسية والبربرية، وحاول المقارنة بين بعضها؛ وهو الواضع لأسس النحو التنظيري، وله في ذلك كتاب موجود بمكتبة أكسفورد ببلاد إنجلترا هو من أنفس ما كتب في الموضوع"⁽⁸⁾ أقول إن مثل هذا الكتاب لو وضع بين أيدي الباحثين، قد يحل كثيرا من المعضلات العالقة في مجال المقارنة، بين اللغات السامية والحامية.

والذي أراه - والله أعلم - أن تأثر الأمازيغ باللغة العربية قد وقع في كثير مما يتداولونه من الألفاظ والعبارات، لا لشيء إلا لكون هذه اللغة هي لغة القرآن، وحبُّهم لهذا الكتاب هو الذي دفعهم إلى أن يتخيروا منه كثيرا من الألفاظ ليستعملوها في مخاطبتهم، حتى صارت وكأنها جزء من لغتهم، وفعلهم هذا دليل وعي، وسداد رأي، وسعة أفق، لأن العاقل هو الذي يتخير من كل شيء أجمله، ولا ريب أن لغة القرآن جميلة في معانيها، جزلة في مبانيها، فلا يُعدّ نقصا ولا عيبا فيمن أخذ من لغة ما يطور به لغته، والعرب فعلوا الشيء نفسه حينما استفادوا من اللغات التي ثبت احتكاكهم بها، وكذلك جاء في القرآن من الألفاظ ما ليس عربيا، وإذا رجعنا إلى سائر اللغات التي يتحدث بها المسلمون من الفرس والهنود والأتراك وغيرهم، فإننا سنكتشف أنها استعملت من الكلام العربي الشيء الكثير، وهي تكتب كلامها بالحرف العربي؛ وها هي اللغات الأوربية جرمانية كانت أو لاتينية

- كما يشتهه الباحثون - قد تأثرت باللغة العربية ، واللغة الإسبانية ، 60 % منها عربي.

وقد أحصيت ألفاظا كثيرة في اللهجة القبائلية ، إمّا أن تكون ذات أصل عربي ورد عليها بعد مجيء الإسلام بمخالطة العرب وآدابهم ، أو أنّ العربية والأمازيغية تشتركان في ألفاظ ، كونهما من اللّغات السّامية - على رأي من يقول إنّ الأمازيغية منها - ، وهذا شيء يخفى أمره إلا لمن تأمل كثيرا ، وأنا هنا أصرب مثالين أرى اللَّفظتين فيهما ضاربتين في الزّمن ، وليستا ممّا جاء بقدم العرب إلى الشمال الإفريقي ، أوّل المثالين كلمة يَكْنُ⁽⁹⁾ ، بمعنى حتى ظهره ، وهو يساوي في المبنى والمعنى كلمة كنع في اللّغة العربيّة ، وقد ورثت أجيال الأمازيغ منذ أعصار قديمة لا يزالون يردّدونها إلى يومنا هذا " أنرّز ولا نكنّو" ؛ أي نُكسر خير من أن نكنع ونخضع ، ولا بدّ أن نعلم أنّ كلمة كنع توضع ضمن الغريب الذي يقل استعماله ؛ أمّا الكلمة الثانية فهي أشدّ خفاء ، وأقصد بها تفويت ، أو تفوغث⁽¹⁰⁾ ، على اختلاف اللّهجات ، وهي بمعنى الشمس ، وكلمة ثفات بمعنى الضوء ، وفي العربية كلمة أنفية مفرد الأثافي ، وثلاثة الأثافي في المعنى الحقيقي ممّا يستعمل لنصب القدر لإنضاج الطعام ، وهذا لا يكون إلا بنار توقد ، وهذا علّة مشتركة بين هذه الكلمة والشمس والضوء ، وكلّها تكون بنار موقدة ، والمادة ث ف ي تجمع بين الكلمة العربية أنفية والكلمتين في تفويت وثفايت في الأمازيغية.

4. جدول لبعض الألفاظ المتشابهة في مادّتها ، ذات المعاني المتطابقة أو المتقاربة في القبائلية والعربية :

القبائلية	العربية	المعنى
أفادير	الفِدرة	: ففي كليهما بمعنى القطعة من اللحم المطبوخ الباردة ؛ [ينظر لسان العرب لابن منظور].
أسّان	السّنان	في الأولى بمعنى الشّوك ، وفي الثانية سنان الرّمح ، والمعنى المشترك بينهما أنّ لكليهما رأس حادة ، والشوكة الحدّ في السّلاح ؛ [ينظر لسان العرب ، و الصّاح للجوهري] .
أخّام	الخيمة	في كليهما المنزل أو البيت الذي يقيم فيه الإنسان ، وغلب عند العرب

		على ما يصنع من الشعر ويوضع على أعواد ثلاثة ؛ [ينظر لسان العرب] .
أمضور	المضير	في الأولى يقصد ما يسقط من التين قبل نضجه ، و المضير ، وفي العربية الماضر أي شديد الحموضة ، ومضر اللبن أي صار ماضرا ، وهو الذي يحذي اللسان قبل أن يروب ، والتين قبل نضجه يحذي اللسان وهذا هم المعنى المشترك بين الكلمتين ؛ [ينظر لسان العرب ، والمخصص لابن سيده] .
أشروف	الشرف	في الأول بمعنى الصخر العظيم ، والشرف في العربية العلو ، وكل ما علا وعظم فهو شريف ، والشرف كل نشز من الارض قد أشرف على ما حوله قاد أو لم يقدر ، سواء كان رملا أو جبلا ، وجبل مشرف أي عال ، والمعنى بين اللفظين العلو والعظمة والارتفاع ؛ [ينظر لسان العرب] .
أجمام	الجمام	يقال في المثل القبائلي " أَبْطَنُ وَأَمَانُ سَجَمَام " أي بلغ الماء حدّه من الكثرة حتّى فاض ، والعرب تقول جَمَّت البئر ، فهي تُجْمُ وتجمّ جوما إذا كثر ماؤها واجتمع ؛ يقال جنتها وقد اجتمعت جنتها وجّتها أي ما جمّ منها وارتفع ، والجمّة المكان الذي يجتمع فيه ماؤه ، والجمع الجمام و الجموم ، وهو معنى متقارب بل متساو ؛ [ينظر لسان العرب] .
آفير	العفر	يمكن نطقها عند بعض بآفير ، وعند البعض الآخر أعفير ، لاختلاف اللهجات في بلاد القبائل ، وعندما نطق الهمزة عينا يتبين أكثر وجه الشبه بينها وبين اللّغة العربية ، كالذي من الاشتراك في مادة الكلمة بين أعفير والعفر ، وهي (ع ف ر) ، وهما بمعنى التراب ؛ [ينظر لسان العرب] .
يرشح	رشح	ففي كليهما عرق الجين ، يقال رشح فلان عرقا ، وجاء في الكامل للمبرّد : حتى ينتح جبينه عرقا فهو مثل الرشح ، والرشح في القبائلية مربوط بالجبين حينما يقولون " أَرِشَحْ أنيريس تّيزي " أي رشح جبينه بالعرق ، والعرب تقول : " كلّ إناء يرشح بما فيه " أي يتحلّب ؛ [ينظر لسان العرب ، والكامل ص 145 ، ومجمع الأمثال للميداني] .
ثفلقوقث	فلق	ففي كليهما بمعنى الدّاهية ، يقال داهية فليق ، جاء القوم بأمر بالفليق ، والفلق اسم من أسماء الدّاهية ؛ [ينظر الكامل للمبرّد ص 64 ، موسسة دار المعارف] .

هذه هي بعض الألفاظ التي اشتركت فيها القبائلية والعربية في مبناها ومعناها، وهو دليل عظيم الصلة بينها، ولعلها أن تكون قديمة قدم التاريخ، أنا لا أستطيع أن أحدّد سبب هذا التشابه لغموضه، ولا يمكن أن أقطع كون اللسان الأمازيغي بشتى لهجاته واحد من اللغات السامية كما يجزم علي فهمي خشيم الليبي، وعثمان سعدي الجزائري، وكلاهما عمل معجما ليظهرهما فيهما ذلكم التطابق بين تينك اللغتين، ولكن أرى أتلهما تكلفاً تكلفاً ظاهراً لا أرى إليه حاجة، ولا يسوغ لي أن أسمى أن الأشياء بغير أسمائها فالبربر جنس غير جنس العرب، كسائر أجناس البشر من السريانيين والأكاديين والآراميين والعبرانيين، وهؤلاء وإن جمعتهم سلالة واحدة وهي السامية، إلا أن كل واحدة منها تعتدّ بجنسها ولا ترضى لنفسها تسمية غير ما ورثته عبر قرون، واختلاف الأجناس واللغات من سنن الله في الكون كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الرّوم/22] ، بعد دراستي المتواضعة لأصول الأجناس واللغات فإنني لم أجد من المتخصصين في الألسنيات وعلم الأجناس من يجزم بأصول الأجناس واللغات، وتراهم يجتهدون في تصنيفهم للأجناس، فيذكرون منها ما ينتمي للسامية وأخرى للحامية، لأن القطع في شيء لا يمتّ بصلة إلى العلمية والموضوعية ولا تزال البحوث العلمية سارية إلى يومنا هذا ، وكيف نجزم كما فعل عثمان سعدي حينما قال : "البربر عرب عاربة قحطانيون ، استقروا بالمغرب العربي ضمن هجرات سابقة لهجرة الكنعانيين الفينيقيين ، وللفتح الإسلامي ، على أساس أنهم عرب قدامى أو عروبيون أي ساميون وفق التسمية الغير العلمية . " (11) . ومثل هذا الكلام محض احتمال ، وكيف يرفض مصطلح السامية وهو جار على ألسنة الباحثة قديما وحديثا ، وكيف له أن يجزم بأسبقية الأرومة العربية على سائر، وهو لا يعدو أن يكون ناقلا من بحوث غيره الذين لم تسعفهم الحفريات إلى حدّ الساعة في تكوين نظرة علمية نهائية تجاه مثل هذه المسألة ونقض ابن خلدون الآراء التي تقول إن البربر ينتمون إلى أصول عربية تمتد إلى اليمن أو القائلة إنهم من عرب اليمن، خصوصا قبائل بربرية مثل "هواره وصنهاجة وكتامة" أكثر القبائل الأمازيغية ادعاء للعروبة.

5. أثر لغة القرآن في القبائلية :

إن اقتباس لغة من لغة أخرى ليس عيبا - كما ذكرت سابقا - بل هو دليل نضج وتطور ، واقتباس أهل الزواوة من القرآن بما يناسب لغتهم ويتسق مع أوضاعها اللغوية أمر ظاهر ، وذلك ما سأبرزه بشيء من التفصيل مستشهدا بالآيات القرآنية مع اعتماد كتب اللغة والتفاسير ، حتى تكون المقارنة صحيحة ودقيقة ، وأنا إذ أتكلم عن ذلك الاقتباس إنما أقصد تلكم الألفاظ الخفية التي لا يدركها إلا أهل التخصص ، أما الألفاظ القرآنية المشهورة ، كالصلاة ، والرب ، والآخرة ، والصراط ، والملائكة ، والجن ، والرسول ، والقيامة ، وغيرها ، فإنها معلومة تجري على لسان كل مسلم عربيا كان أو أمازيغيا أو هنديا أو فارسيا .

فمن تلك الألفاظ القرآنية الجارية على ألسنة أهل الزواوة ، ولا نجد لها استعمالا مماثلا في العامية الجزائرية :

1) أمحياف : يقولون : إَجْ امُحْيَاف جَر⁽¹²⁾ سين أي لم يعدل بين اثنين من الناس ، وهذا ما يوافق الكلمة الواردة في القرآن وهي "يحيف" في قوله تعالى ﴿...أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ...﴾ [النور/50] أي يجور وهو من الخيف ومعناه الجور ، فالكلمتان متفقتان لفظا ومعنى فهما من مادة ح ي ف يقول الراغب الأصبهاني : "الخيف الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين قال تعالى: ﴿...أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ...﴾ [النور/50] ؛ أي يخافون أن يجور في حكمه "⁽¹³⁾؛ وهذه الكلمة لا نجدها في العاميات في شتى مناطق البلاد على حسب علمي .

2) الرِّيف : يقولون عن شيء ما؛ إذا كان على طرف صخرة أو غير ذلك: أثنان ، فالريف أي على حرف ، إذن إن هناك توافقا بين الكلمتين في اللفظ والمعنى ، حتى وإن حدث تحريف في كلمة الرِّيف ، فالتطابق كائن بين الحرفين الراء والفاء مع توافق في الترتيب هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فكلمة الرِّف في العربية تحمل معنى الطرف⁽¹⁴⁾ ، ومن جهة ثالثة فكلمة الرِّيف حافظت على القاعدة النحوية في

التعريف بالألف واللام مع تشديد الراء؛ وهي من الحروف الشمسية، هذا من قواعد اللغة العربية التي لا تنازعها فيها أية لغة أخرى.

3) يَشْرَاح : يقولون يَشْرَاح وُوليس أو يَشْرَاح ووذميس ومعناه انشرح قلبه، أو انشرح وجهه ، فأصل الكلمة الشرح ، أي بسط اللحم ونحوه، يقال شرحت اللحم ، وشرحته ومنه شرح الصدر⁽¹⁵⁾، والمعنى الأول موجود في الكلام العامي في قولهم لَمَشَّرَح ، ويقولون في القبائلية ثشريح أي شريحة اللحم وهذا متفق تماما مع المعنى العربي ، ولكن الأغرب منه أن تتفق الكلمة القبائلية يَشْرَاح مع الكلمة القرآنية لفظا ومعنى، وهذا هو الداعي للعجب، وهو ما جاء في قوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح/1]؛ وكأن أصحابها اختاروا اللفظ الذي خص به نبينا الكريم - عليه الصلاة والسلام - دون غيره مع وجود المعنى نفسه لو قالوا [يشرح وُوليس]، ووزن انفعال في هذا الفعل وغيره من الكلمات، يتفق وما هو كائن في اللغة السامية ، كما يشتهه الباحثون في مجال اللسانيات.⁽¹⁶⁾

4) يَمْغُونَز: يقولون فلان ذ فلان امغونزان ، أو يقال أيضا امغونزان امبجراسن⁽¹⁷⁾، أي فسد ما بينهما، أو هجر كل منهما الآخر ، ولعل هذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ ... مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ... ﴾ [يوسف/100] أو قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الإسراء/53] ، والنزغ معناه دخول في أمر لإفساده⁽¹⁸⁾ "نزغ الشيطان" أي أفسد وأغوى (19).

نخلص مما سبق إلى أن الكلمتين تحملان معنى الفساد، وهما من مادة واحدة ن ز غ أو غ ن ز وإن تغير الترتيب بين حروفهما ، وهذا أمر مألوف في اللغة العربية ، ولعل هذا من وجوه الاتفاق بين الأمازيغية والعربية.

6. أثر الفقه في اللهجة القبائلية :

الفقه الإسلامي في كثير من أحكامه ، كان يحكم حياة الناس في بلادنا وفي سائر بلاد المسلمين، إلا أن المثير للانتباه في بلاد الزواوة أن الناس فيها وإن كانوا من جملة العوام إلا أنهم يتداولون بعض المصطلحات الفقهية الدقيقة التي لا يعرفها -

في كثير من الأحيان - إلا من درس الفقه، وعاش مع مصطلحاتها في الكتب الفقهية المتخصصة.

وأنا أعزو هذه الظاهرة إلى كثرة الزوايا والفقهاء في بلاد الزواوة، ومعايشة الفقهاء لسكان هذه المنطقة في كل أحوالهم، خصوصاً إذا عرفنا أن المنطقة عرفت بعض الأنظمة الصالحة التي أسهمت في هذا التقارب، كالذي يطلق عليه في هذه المنطقة "تجميت" أو "تجمعت"؛ على اختلاف المناطق، والتي كانت تولي صنعة الكلام مكانة رفيعة، وكانت تعنى ببلاغة الخطاب وفصاحته عناية فائقة، وكانت لا تقدّم في تمثيلها في الجامع والمحافل إلا من فصّح لسانه، ورجح عقله، وتوكل إليهم فض النزاعات الدائرة بين الأفراد والعشائر، وهذا ما يستدعي الاطلاع على المصطلحات الفقهية التي ترافق الأحكام الفقهية التي يصدرها الفقهاء، ويتولى تطبيقها أعيان تجمعت، ويلتزم بها الأهالي دون تمييز أو اعتراض.

بعض المصطلحات الفقهية المؤمّزة:

1) يقولون فلان إيشوفاد أو إيشوفعاد أكال، أي فلان استعمل حق الشفعة في امتلاك الأرض. فالشفعة مصطلح فقهي يستعمل في بلاد الزواوة بصيغة الفعل، ويراد به المعنى الفقهي نفسه الذي هو أخذ الشريك حصة شريك جبراً شراءً⁽²⁰⁾، وعرفها الدردير بقوله: "الشفعة استحقاق شريك أخذ ما عاوض به شريكه"⁽²¹⁾، والشفعة من المصطلحات الفقهية التي لا يدرك معناها كثير من الناس في المناطق الأخرى إلا من كان فقيهاً، أو له احتكاك بأهل الفقه، أما في منطقة القبائل، فإنك إن سألت عجوزاً أمية - مثلاً - عن معنى تلك الكلمة فإنها ستخبرك به دون صعوبة أو تلوّك.

2) يقولون عند الحلف اجمع ليما أن يلزمن، عندما يريد الناس في منطقة القبائل تغليظ الأيمان والتأكيد عليها يستعملون هذه الصيغة في الحلف، وهي تحوي على ثلاث كلمات تحمل معنى العزم والإلزام فكلمة أجمع تساوي كلمة "أجمع" التي يراد بها العزم لقوله تعالى: ﴿... فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ...﴾ [يونس/ 71]، وهذا ما أراه في معنى هذه الكلمة، وقد يراد بها معنى "جميع" أي "كل" لتشمل الأيمان كلّها؛ وقد نطق بها بعض الناس - فيما مضى - مما لا نكاد نسمعه اليوم من

أحد البتة - بلفظ آخر، وهو قولهم جَلَّ لِيَمَانُ أي أعظم الأيمان وأوكدها، أما الكلمة الثانية من تلك العبارة فهي "الأيمان" جمع يمين ، لعلهم التزموا الاستعمال القرآني الذي ارتضى الجمع دون الأفراد كما في قوله تعالى: " ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان"[المائدة/ 89] ، وأما الكلمة الثالثة فهي لفظ "أذيلزمن"؛ بمعنى تلزمني؛ وهي أيضا من المصطلحات الفقهية .

فالمعنى الإجمالي لتلك العبارة :جميع الأيمان تلزمني⁽²²⁾ ، وهي من الأيمان المغلظة التي لم يكن أهل الهمة والنخوة من الرجال يرضى أن يحث بعد التلفظ بها مهما تكن الظروف.

3) ثجعت وهذه أيضا من المصطلحات الفقهية ذات الأصل العربي ، واللفظ فيها "جعل" أو جُعالة (مثلثة الجيم)، ومعناها عندهم الأجرة التي تقدم لمن يقوم بعمل ما، وهو المعنى نفسه الذي يستعمله الفقهاء ، ويراد به في اصطلاحهم "التزام مكلف رشيد عوضا ماليا في نظير أمر"⁽²³⁾، ويعرفه الجرجاني بأنه ما يجعل للعامل على عمله.⁽²⁴⁾

4) يبريس :[ب=v] وهو فعل يراد به معنى الطلاق أي طَلَّقَهَا ، وأصلها في كلام الفقهاء "برية" ، وهي من ألفاظ الكناية الدالة على طلاق البتة ، كما في كتب الفقهاء كابن الحاجب وغيره⁽²⁵⁾، فالكلمة واحدة في اللغتين وإن استبدلت الباء إلى v كما هي عادة الزواوة في كثير من الكلمات ، وغالبا ما تكون ذات أصل عربي ، كقولهم "أبريد" أي "البريد" ومعناها الطريق بلسان الزواوة ، والأمثلة على ذلك كثيرة ؛ إذن ذلك ما يؤكد كون الكلمة التي تستعمل في الطلاق عند الزواوة مستمدة من الكلمة الفقهية "برية" ، والبرية من البراءة أي برية من الزوج .⁽²⁶⁾

أما الذي لفت نظري أكثر أن الزواوة استعملوا الفعل نفسه في معنى آخر، يوافق المعنى اللغوي للفظ الطلاق الذي يراد به معنى الإرسال، تقول العرب فلان أطلق ناقته أي أرسلها، وهذا هو المعنى نفسه الذي يستعمله الناس عندنا، حينما يقول أحدهم ابرويس إيوولي ، أو ابرويس إئفونست ، أي أرسل الأغنام ، أو أرسل البقرة .

فذلك اتفاق يستدعي النظر، وهولا شك يشير العجب، ويؤكد على أن مصدر كلمة "يبرياس" مصدرٌ فقهي - لا محالة؛ لأن الفقهاء غالبا ما يعرفون الكلمات لغة واصطلاحا، فانتقل معنى الطلاق بلفظ "برية" بشقيه اللغوي والاصطلاحي إلى اللهجة القبائلية - والله أعلم - .

الخاتمة:

ذلك ما أردت أن أظهره في هذا المقال المتواضع، حتى نتبين ذلكم التأثير القوي للجانب الديني على الأمازيغ في الشمال الإفريقي، وأن تراثهم مازجه الشيء الكثير من لغة القرآن، ومثله، ومبادئه، فانصهرت بذلك عقولهم، وقلوبهم، وألسنتهم، وكان حبههم لما أتى به الإسلام حبا صادقا وعميقا، لم يتخلّوا عنه منذ أن أشربته قلوبهم، لأنهم أخذوه بعقول واعية، وقلوب صادقة، وهم قوم - كما نعرف - لا يرضخون لشيء إلّا إذا ارتضوه، وإلّا نبذوه وراء ظهورهم.

7. الهوامش

- (1) الباء في اللهجة القبائلية تقلب في الغالب إلى الحرف V كما هم معروف من اللغة الفرنسية.
- (2) حرف "ك" صفته نفس، يخرج بين اللّهات واللسان، ولا يوجد مثيله في اللهجات الأمازيغية الأخرى، ويوجد في اللغة الألمانية.
- (3) الحرف "غ" صفته نفس مع ذبذبات، يخرج بين اللّهات واللسان، وقد يكون بدله في اللّهجّات الأخرى "ج".
- (4) معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية، عثمان سعدي، ص 1.
- (5) ينظر في المذهب حسب الترتيب الأبجدي.
- (6) مقال الدكتور يوسي آرو: (وحدة الأصل بين اللغتين العربية والبربرية)، كتاب الأصالة، شوال 1399هـ، 67/1.
- (7) تاريخ الجزائر، توفيق المدني، ص 77.
- (8) تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي: 174/1.
- (9) المذهب فيما وقع في القرآن من المعرّب، السيوطي ص 32؛ ينظر آخر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي: 51/1.
- (10) المرجع نفسه، ص 31 — 35.
- (11) الراسب من كل شيء، المعجم الوسيط.
- (12) الجيم في كلا الكلمتين تقتربان من الجيم المصرية (gu)، ومخرجه ما بين اللسان واللهة، ومن صفاته الاهتزاز مع تموج، وقد لا يوجد هذا الحرف إلا في اللهجة القبائلية خلافا لسائر اللهجات، وفي الشلحية تنطق جيما فيقولون مثلا عن السماء إجي.
- (13) المفردات، الراغب، ص 266.
- (14) ينظر معاني رف في المعجم الوسيط، مثاله قولهم رفّ المرأة أو شفتيها: أي قبلها بأطراف شفتيه.
- (15) المفردات، ص 449.
- (16) مقال الدكتور يوسي آرو: (وحدة الأصل بين اللغتين العربية والبربرية)
- (17) كتاب الأصالة، شوال 17هـ، 70/2.
- (18) الجيم هنا كسابقه، مما ذكرت في الصفحة 8.
- (19) المفردات، ص 798.
- (20) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ص 323.

- (21) جامع الأمهات ،ابن الحاجب، ص416.
- (22) أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك ،أحمد بن محمد الدردير ، ص154.
- (23) 23سراج السالك شرح أسهل المسالك ، بري الجعلي المالكي: 173/2.
- (24) تعريفات ،الجرجاني، ص 48.
- (25) ينظر ابن الحاجب، ص 296.
- (26) حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني ، 80/2 .